فينيقية والفينيقيون (١)

لجناب رفعتلو نجيب افندي البستاني

موضوعي هذه الليلة "فينيقية والفينيقيون" وقد دعاني الى اختياره ما بيننا وبين الفينيقيين من صِلة النسب وما اورثونا من الطباع وما استحفلوا من الآثار الدالّة على سابق شوكتهم وبعيد شهرتهم فانا منهم وبيروت من اشهر مدنهم فرأيت ان افضل ما اوجهُ اليهِ افكاركم مجمل من قصة اسلافنا الفينيقيين اسردهُ سائلاً حلمكم وعفوكم

فونيقية لفظة يونانيّة معناها النخل وهو اسمٌ اطلقهُ اليونان على البلاد الضيقة الواقعة ما بين بحر الروم غرباً ولبنان شرقًا وسوريّة شمالاً وبلاد يهوذا جنوباً . قيل في سبب هذه التسمية انهُ كثرة النخيل في فينيقية فان بعض نقود ارواد وصيدا وصور مضروب عليها النخل على سبيل الرمز . واسمها الاصليُّ كنعان او قنا ومعناهُ الارض المنخفضة . وقد حدّدها جمهور الجغرافيين ما بلي جبل الكرمل جنوبًا الى طرطوس شمالاً طولها مائة وعشرون ميلاً ويختلف عرضها ما بين لبنان وبحر الروم من اثني عشر ميلاً الى ميلين او اقلّ منها

اما مدنها المهمة فاراود في الطرف الشمالي موقعها على جزيرة ارواد . وطرطوس . ومرتوس وهي عمريت . وسميرا قرب النهر الكبير . وسمرون او ارثوسيا في عكّار . وطرابلس بناها قوم من ارواد وصيدا وصور ثلثة احياء ودعوها تريبوليس اي المدينة المثلثة . وبيبلوس وهي جبيل . ويجري الى الجنوب منها نهر ابرهيم دُعي ادونيس نسبةً الى المعبود ادونيسَ ولهُ خرافة مشهورة سيأتي ذكرها . وعلى امیالٍ منهُ نهر ليكوس اي نهر الذئب دُعي بالتحريف نهر الكلب وفي جوارهِ ستُّ كتابات قديمة منها واحدة رومانيّة والباقية اشوريّة ومصريّة واعرقها في القِدم كتابتان مصريتان احداها من القرن السادس عشر ق . م وثانيتها لرعمسيس الثاني ملك مصر المشهور بظلمهِ للعبرانيين نقشها في عودتهِ من حرب شديدة اصلاها على الحثيين عند نهر العاصي قرب انطاكية . والى جنوبي نهر الكلب مدينة بريتوس اي بيروت قيل أُخذ اسمها من بعل بريت معبود الكنعانيين المذكور في سفر القضاة وكان لهُ فيها هيكل وقيل بل من بيروثا ابنة الزهرة وادونيس وقيل

(١) خطبة تلاها في احتفال جمعية شمس البر السنوي في بيروت

بل من بيروت ومعناهُ بالعبرانيَّة والسريانيَّة والفينيقيَّة بئر والواو والتاء للمبالغة او للجمع لكثرة ما فيها من الآبار . وكان لها هيكل عظيم على قمة جبل الى شرقيها آثارهُ باقية الى الآن هو دير القلعة في جوار بيت مري بناهُ الفينيقيون للمعبود بعل مرقوذ اي معبود اللعب والرقص ولما جاء اليونان في عهد الاسكندر جعلوهُ للمشتري ولقبوهُ بكبريوس كوبس اي معبود اللعب اخذًا عن الفينيقيين وكذلك الرومان بعد غزوتهم البلاد بنوا بقربهِ معبدًا ليونو امرأة المشتري ونقشوا عليهِ اسم المعبود الفينيقي بعل مرقوذ بالحروف الرومانيَّة ولا تزال هذه الكتابات الى الآن يقرأها السيَّاح . وفي القرون المتأخرة بنى الموارنة ديرًا سموهُ دير القلعة اقاموهُ على آثار المعابد السالفة على صومعة قرب بيت مري وانهُ لأجمل موقع في لبنان فالواقف فيهِ يرى البلاد من صيدا الى طرابلس بهيئة هلاليَّة بديعة . وقديمًا كان حواليهِ غابة ملتفة من السنديان صُنعت فحمًا ومنها بقية من شجيرات تُرى حتى الآن . وكان الاقدمون يبنون معابدهم على مرتفعات لبنان وصوامعهِ وقد ورد ذكرها في الكتاب المقدس باسم المرتفعات اقام عليها الدماء معابدهم وهي كثيرة قلما خلا منها مشرف من لبنان . واشتهرت بيروت في عهد الرومانيين بمدرستها الشرعيَّة وبها آثار كثيرة تدلُّ على عظمتها . وبليها نهر الثاميراس وهو الدامور

اما صيدا فهي اقدم مدن الفينيقيين واشهرها وقد عرفوا بها دهرًا طويلاً كما ورد في التوراة وفي قصائد اوميروس . ولعلَّ اسمها مشتق من الصيد لان اهلها كانوا صيَّادين . ومن مدنها ايضًا صور بناها الصيدونيون في البر فاستقلَّت وسمت على صيداء وكثر سكَّانها فضاقت بهم فبنوا على جزيرتين مقابلها . ولما حاصرها الاسكندر وصل الجزيرتين بالياسة ليتناولها بآلات حربهِ . ومنها عكاء وهي عكُّو او بُطلمايس القديمة . ويؤثر النيل في الشاطىء الفينيقي حتى صيدا وصور ذلك بان طيَّار البحر يحمل ما يقذف النيل من غِرْيَلٍ وطين ويلقظهُ على الشاطىء فتغيِّرهِ بكرور الايام فاضحى بعيدًا عن البحر ما كان قريبًا منهُ

وما خرافة ادونيس عند الفينيقيين الاَّ خرافة المعبود تموز عند الاشوريين وهو شاب جميل عشقتهُ الزهرة السموية قيل لما ولد انزلت بحالو فوضعتهُ في صندوق وسلمتهُ الى الزهرة السفلى لتربيهِ فطمعت بهِ فتقاضتا المشتري فحكم لكلٍّ منهما بستة اشهر تنيهما معهُ وقد اخذهُ الضجر يومًا فخرج للصيد في غياض لبنان وكان المريخ معبود الحرب يحسدهُ فظهر لهُ بصورة خنزير بري فاقتتلا شديدًا فقتل ادونيس وامتزج دمهُ بماء النهر فاستبطأتهُ

الزهرة فاسرعت اليهِ تبكي وتنوح وغطت شلوهُ بورق الخسّ والخبّازى ثم تضرعت الى المعبودات فرثين لها وآنسنه . قيل تحوّل بعد موته الى نوعٍ من الشقيق الاحمر وفي قرية الغينة من اعمال النتوح في لبنان صخر منقوش عليهِ خنزير يقاتل رجلاً والى جانبها امرأة تبكي رمزًا الى قتل ادونيس وبكاء الزهرة عليهِ . وحكاية قيامتهِ منقوشة في محل يسمّى المشنقة من اعمال لبنان . وكان الفينيقيون واليونان والرومان يحفلون باعياد ادونيس يتخذون بعضها تذكارًا لقتلهِ فينوحون ويلبسون المسوح والبعض الآخر منها تذكارًا لنباتهِ فيفرحون ويطرّبون ولهم فيها عادات يمنعنا ضيق المقام من ذكرها . ومن غريب الاتفاق ان النهر كان اذا أزف العيد احمرّ ماؤهُ بما تحملهُ اليهِ السيول الجوارف فيقول الناس هي احدى كرامات ادونيس يحوّل الماء دمًا . وقد كانت هذه الخرافة عند المصريين فاخذها الفينيقيون عنهم . قال المصريون ان معبودهم اوزيريس لما قتلهُ اخوهُ وضعهُ في صندوق وانزلهُ النيل فحملهُ الى البحر المتوسط فاستقلّهُ الى جبيل فتبعتهُ امرأتهُ ووجدتهُ هناك . وقد بنى القدماء هيكلين احدهما للزهرة بنوهُ في أفقا وفيها ينابيع نهر ابرهيم والآخر لادونيس قرب جبيل عند مصب النهر المذكور

وقد انكر كثير من المؤرخين الاصل الفينيقي على الفينيقيين والراجح ان مواطنهم سواحل خليج العجم نزلوا فيهِ جزائر البحرين وما يجاورها ثم هاجروا الى فينيقية وما هم أن نزلوها حتى أوغلوا في البحر يتجرون مع اوربا وسائر البلاد ويبثون فيها جراثيم المدنيّة . والمشهور عنهم انهم اول من كتب بالحروف وان لم يكونوا قد استنبطوها فلا يبعد أنهم اخذوها عن المصريين واذاعوها بين الناس فجاءت اساسًا للتمدن البشري اذ العلم اساس المدنيّة وبهِ قوام المساواة وكل تقدّم يتم للناس . اما الفينيقيون الاصليون فهم من نسل سام بن نوح قالهُ اكثر النسّابة وكانوا لاول عهدهم قد مهروا الصناعات بدليل ما جاء في سفر الايام الثاني ونصهُ " ان حيرام ملك صور ارسل الى الملك سليمان في عهد بناء الهيكل رجلاً ماهرًا بعمل الفضة والنحاس والحديد والحجر والخشب والارجوان والسمنجوني والبزّ والقرمز وصناعة كل نقش واختراع كل شيء "

اما تجارتهم وهي ما حازوا فيهِ السبق على الامم سواهم وشادوا بتاجهِ صرح سؤددهم فقد اخذوا بها الافاق البرية والبحرية وكانوا يغارون على طرقهم ان يتعلمها غيرهم قيل كان ربان سفينة فينيقيّة يخفر البحر الى بلاد الانكليز فطاردتهُ سفينة رومانيّة لتتعلم الطريق فرطمَ الفينيقي سفينتهُ عمدًا وتغربرًا فانخدعت لهُ السفينة الرومانيّة فلحقتهُ فارتطمت وغرقت

ولما رجع الفينيقي الى بلادهِ احسنت الحكومة صلتهُ . ومع أنهم أمدُّوا اليونان قروضًا متوالية بالقصدير والكهرباء والنحاس الاحمر لم يتمكن المؤرخ هيرودوتس من معرفة موارد تجارتهم والغالب على الظن انهم كانوا يأتون بهذه المعادن من بلاد الانكليز وسواحل البلطيك . ومما احتلوهُ في البحر المتوسط قبرص ورودس واكثر جزر الارخبيل ونزلوا ضفتي البوسفور وبنطس انما تخلّوا عنها لليونان بعد ذلك واستعمروا جُزُرَ صقلية وسردينيا وكورسيكا ومالطة وغوزو وكومينو وجزر باليار والجهة الجنوبيَّة الغربيَّة من اسبانيا وقرطاجنة وما يليها ونشأت لهم في بتلاريا دولة مستقلة وشادوا في فرنسا وشمالي افريقية المعامل والمصانع وطوّقت مراكبهم افريقية ووصلت الى بلاد الانكليز وبحر البلطيك والبحر الاسود وبحر ازوف واستقرأوا جبال القوقاس وبلاد الخزر وهكذا قاموا رادوا بلاد الله المعروفة في ذلك الحين بطولها وعرضها يتجرون ويغنمون

اما تجارتهم مع مشارق اسيا فكانت تقطع بها قوافلهم طرقًا ثلاثًا الاولى تدمر والثانية صحراء سوريَّة الى مصب دجلة والفرات والثالثة طريق بلاد العرب . وفي القرن الثامن قبل الميلاد بلغوا بتجارتهم منتهى الزهو واستأثروا بها دون سائر الامم بما ملكوا من السعي والثبات . وكانوا قد استعمروا قرطاجنة في شمالي افريقية انشأتها أليسار او ديدون اخت بغماليون ملك صور في القرن التاسع ق . م وحكاية ذلك ان السار تزوجت رئيس الكهنة وكان صوريًا واسع الثروة نافذ الكلمة فقتله بغماليون حسدًا فاتسع الخرق بينهُ وبين اخته فانقلعت عن صور بشقٍ من نصرائها واعوانها وبنت قرطاجنة على عشرة اميال من موقع تونس الحالي فزهت ونمت واتسعت حتى تمكنت في قلب افريقية وامتدَّ سلطانها الى البلدان المجاورة وامتزج اهلها بالشعب الليبي ووقعت لها حروب مع الرومان اشتهرت بالحروب البونيقيَّة او الفونيقيَّة . وكان لاهل صيدا وصور صيت بعيد في التجارة وبناء المراكب يأخذون الخشب من غابات لبنان وارزه ويبنون به مراكبهم وما يعرف عن خبرتهم بفن سير الابحر يظهر انهم حذقوا علم الفلك وعرفوا تأثير القمر في المدّ والجزر . وكانوا يبيعون مصنوعاتهم ومحاصيلهم من اليونان والمصريين والرومان ويأخذون بثمنها حاجتهم من بضائع تلك الامم . ومن افضل ما صنعوا الزجاج تعلموهُ من المصريين واستعملوا في صنعهِ المحرطة وانبوبة النفخ (البوري) والمنقاش وعملوا منهُ مرايا جميلة . ومن نفائسهم الارجوان صنعوهُ من اصدافٍ خاصةٍ ببغتهم وقد حقق العلماء انها لا تزال موجودة الى الآن وتفننوا في تركيبهِ وتلوينهِ فاكتسادُ الملوك رياشًا فعمَّ استعمالهُ منسوبًا

الى صور . وقديمًا كان شان الفينيقيين في التجارة والاستعمار شان الانكليز اليوم وما وصفوا به اصالة الرأي والحذق والذكاء وقد رسخت هذه الصفات في ذريتهم فهي الى يومنا هذا صفات السوريين يعرفون بها في العالم أجمع

واقدم ما يعرف عن حكومة الفينيقيين انه كان لكل مدينة ذات شان ملك يتوارث الملك في ذريته فاذا انقرضت انتخبوا من يولونه امرهم . وكان الشرفاء في صيدا وصور وغيرها من المدن المهمة يؤلفون مجلسًا شوريًا وكانت العامة اخفض شانًا منهم فلم تنل منالهم . وليس في التاريخ ما يدل على اتحاد المدن الفينيقية انما كان النفوذ الراجح في عدة مدائن لاكثرها جيشًا واوسعها ثروةً . وقد حصل ذلك لصيدا فصور ولم يكن لهم جيش بري يدفعون به الاعداء فلما حاربهم الاشوريون والبابليون والفرس واليونان اضطروا ان استجدوا الجيوش المستأجرة

اما عظمة الفينيقيين فقد نشأت عن سعة ثروتهم ورواج تجارتهم ووفرة معادنهم وكثرة مهاجرهم وعن تفردهم ببعض الصناعات دون سائر الامم الا انه لما عظم شان اليونان واقتنوا المراكب واتسعوا في البحر غلبوا الفينيقيين على مستعمراتهم في جزر الارخبيل وساحل اسيا الصغرى وصقلية وفرنسا ونافسوهم في التجارة والصناعة فاضعفوهم واذلوهم ثم تعاقبت عليهم غزوات الشعوب المجاورة فتقلصت سطوتهم وخسروا استقلالهم

اما تاريخهم فما سبق سنة القرن العاشر ق . م تكتنفه الظلمات التاريخية والمعروف من امرهم ان ولاية ملكهم ايبعل كانت ايام النبي داود ثم خلفه ابنه حيرام فحالف الملك سليمان وصاهره وارسلا المراكب أوفير تستورد الذهب . وخلفه إثبعل وكان حبرًا فأسس دولة جديدة في صور وخلفه بادزوز ثم متّان ثم بغماليون فبنيت قرطاجنة في عهده كما مرّ . وفي منتصف القرن التاسع ق . م غزاهم الاشوريون وضربوا عليهم الجزية . ولما اكتسح سرجون البلاد دافعت صور فحاصرها خمس سنوات . وسنة سبعماية ق . م فتحها سنحاريب ونقش صورته ونصرته على صخور نهر الكلب فهي الى الآن . وبقيت فينيقية في حوزة الاشوريين حتى انقرضت دولتهم . وسنة ستماية وستٍّ ق . م اخضعها فرعون نخو ملك مصر وغزاها من بعده نبوخذنصر ملك بابل فامتلكها جميعًا الا صور حاصرها ثلث عشرة سنة وفتحها عنوةً . وحدث في تلك الاثناء ان اسطولاً مصريًا سار لغزوة بابل فجهز الفينيقيون لنجدتها فغلبهم المصريون ونهبوا بلادهم وسنة الف وثمانماية وخمس وخمسين للميلاد وقع الاثاريون في صيدا على تابوت ملكها اسمونازر وجدوا عليه كتابة فينيقية

مفادُها ان الصيدونيين استولَوا في ايامهِ على مدينتي دُر ويافا في سهل شارون . ولما استولى الفرسُ على فينيقيَّة استعملوا مراكبها في حروبهم مع اليونان ثم غزا الاسكندر مملكة فارس فسلَّمت اليهِ صيدا وبافعتهُ صور فدمَّرها وباع من سَلِم من اهلها ارقاء . وملكها بعدهُ السلجوقيون فالرومانُ وكان لها شأنٌ في عهد الصليبيين انما لما اكتشف الافرنج طريق رأس الرجاء الصالح ضعفت صور وصارت صخرة ينشر الصيادون شباكهم

وقد اختلط دم الفينيقيين بدم ولَيهم من الشعوب كالعبرانيين والاشوريين والفرس والرومان والعرب اختلاطاً لم يسلم منهُ جيل من الناس انما حافظوا بالجملة على عصبيتهم وهكذا فان تسمية سكان القفور السوريَّة من النصارى بالعرب خطأٌ فهم فينيقيون على ولئن تكلموا اللغة العربيَّة . ويؤخذ مما ذكر المؤرخون عن لغتهم انها ساميَّةٌ كالعبرانيَّة والعربيَّة والسريانيَّة وفروعهنَّ وقد وصل الآثاريون الى قراءة الكتابات الفينيقيَّة بواسطة اللغة العبرانيَّة . وقد انتشرت اللغة الفينيقيَّة وعمَّ استعمالها اكثر العالم المعروف في ذلك الحين لكنها اضمحلَّت في فينيقية قبل قرطاجنة اذ بقيت فيها الى القرن الخامس للميلاد فترجمت التوراة اليها

والآثار الفينيقية كثيرة في متاحف اوربا منها مائة وعشرون اثرًا في متحف لندن أُخذ اكثرها من سيتيوم في قبرص (هي لارنكا الآن) وسردينيا ومالطة ومنذ ثلاث سنوات وجد عطوفتلو حمدي بك مدير المتحف العثماني عدةَ نواويس وآثار قرب صيدا منها ناووسٌ فينيقي عليهِ كتابةٌ مهمة فنقلها الى الاستانة العليَّة وهو الآن بيدي تأليفًا فيها . وسنة الف وثمانمائة وستين جاء ارنست رنان في بعثةٍ آثارية فوجد عدة آثار وكتابات فينيقية في طرطوس وأرواد واكتشف هيكل ادونيس في جبيل ومعابد للزهرة وبعل في صيدا وصور وامّ العواميد وقد وصفها جميعًا في كتابهِ المشهور بالبعثة الفينيقية

والفينيقيون مثل الاشوريين والكنعانيين والسوريين عبدوا الشمس والقمر والنجوم والعناصر ونسبوا اليها الكرامات والمعجزات واقاموا لها التماثيل والمعابد ومن نبغ فيهم من الحكماء والابطال عبدوهُ ايضًا ومن اشهر معبوداتهم بعل ومعناهُ إله او سيد كانوا يقدمون لهُ المحرَّقات والذبائح البشرية وكان الكهنةُ عند اقامة الخدمةِ يطوفون بالمذبح مجدًا ووثوبًا ويرقصون ويضجون ويجرِّحون انفسهم ويتمالكون في استرضاء المعبود واستعطافهِ ومنها ايضًا مولك ومعناهُ ملك يرمزون بهِ الى الشمس والحرارة والنار وخلطهُ البعض ببعل وقد بلغوا في عبادتهِ منتهى الوحشيَّة فذبحوا لهُ بنيهم وبناتهم ولما اشتدَّ

اليونان في حرب قرطاجنة ذبح له شرفاؤهم مائتين من اولادهم ونذروا له اذا نصرهم مثل ذلك من أسراهم . واما عبادة الزهرة فلا اذكرها تأدبًا . ومما عبدوا ايضًا نهر الدامور ومعبودات اخرى لا محل لذكرها الآن

واخبار الفينيقيين في حضارتهم وآثارهم وتجارتهم طويلة لا يسع لي ضيق الوقت باستيفائها فاكتفيتُ منها بهذا الموجز راجيًا ان لا اكون قد اذهبت صبركم تحرمتُ عنوكم فاعذروني فخيرُ الناس مَن عذر

التقويم

في تطبيق مواقيت البشر على دوران الشمس والقمر

لحضرة العالم الفاضل المستر ادوارد فاديك (تابع ما قبلهُ)

فبعد ان جرت الاعياد والمواسم الدينيَّة على حساب السنة المتعارفة مئات بل آلافًا من السنين لم ترضَ العامة باعتماد السنة الفلكيَّة وإبطال السنة المتعارفة التي بها تتعلق شعائر الدين فجرت العادة انهُ كل ما تبوَّأ التخت ملكٌ جديدٌ يقسم يمينًا بانهُ لا يغير شيئًا من تقويم السنة وصارت هذه العادة فريضةً ولذا بقيت السنة المضبوطة من متعلقات الخاصة فقط الى ان افتتح الاسكندر مصر ونشأت فيها الدولة اليونانيَّة المقدونيَّة المعروفة بدولة البطالسة التي تولَّت على مصر من موت الاسكندر سنة ٣٢٣ ق . م الى ان أخضع الرومانيون مصر سنة ٣٠ ق . م

السنة الاسكندريَّة — وفي ايام البطالسة اصلحوا تقويم السنة باضافة يوم واحد كل اربع سنين الى ايام النسيء الخمسة ويُسمَّى هذا التقويم بالسنة الاسكندرانيَّة . ويظهر انهم اخذوا ذلك عن السنة المصريَّة الخاصة[1] . ومدة السنة المصريَّة الخاصة هي ٣٦٥ يومًا وربع يوم وأُخذَت عن شروق الشعرى مع الشمس عند الافق كما يُشاهد ذلك من محلٍ على الكرة الارضيَّة عرضهُ اقل من ٣٠° درجة من خط الاستواء او بعبارة اخرى انها قيست على امرٍ يستحق الذكر وهو ان المدة بين شروقين شمسيين لهذا النجم على افق

(١) يجب التمييز بين ملوك الدولة البطليموسية الذين حكموا مصر وبين بطليموس كلاوديوس الفلكي الرياضي الجغرافي الذي سكن الاسكندرية نحو سنة ١٤٠ بعد الميلاد